سُورَةُ الأعلىٰ

عرض ودراسة

ترسم هذه السورة ما ينبغى لله جَلَّ جلاله من تنزيه وتقديس جديرين بصانع الكون وبارئه الذى أحكم خلْقه وتعهده وهداه لما يُراد له من غايات ربَّانية ، حتى تنتهى حياته فى نشأته الأولى على نحو ما تنتهى حياة النباتات . ويتلطَّف لرسوله فيعده بأنه سيواصل وَحْيَه إليه ، وسيقرئه جبريل فلا ينسى ما يقرأ ، ويقول إنه خصَّه بشريعة تقوم على اليُسْرِ ، ولا يوجد فيها أى عُسْر ، ويتوعد من يكفر بها الجحيم ، ويعد من يؤمن بها الفلاح والفوز ، ويحضُّ على رفض الدنيا ومتاعها الزائل وطلب الآخرة ومتاعها الباقى ، ويقول إن ما تحمله الرسالة المحمدية من أصول التعاليم الإلٰهية المسجلة فى صحف القرآن هى نفسها التعاليم التى حملتها صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ، فشريعة الله واحدة .

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) :

بدأ الله جَلَّ ثناؤه كثيرًا من السور القرآنية بالتسبيح ، وأنهى به أيضاً سورًا أخرى ، وقد تبدأ به سورة وتنتهى به كما فى سورة الحشر . فقد افتتحها الله بقوله : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) فكل ما فى الكون يسبِّح له إما بالتسخير والدلالة على قدرته ، وإما بالاختيار كتسبيح لإنسان ، واختُتمت السورة بقوله : (هُوَ اللّٰهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّح لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) . ومعنى التسبيح تنزيه الله عما لا يليق بشأن أُلوهيته بالجَنَانِ واللِّسان والحال ،

أما بالجَنان فالاعتقاد بتوحيد الله وتمجيده وتعظيمه ، وأما باللسان فالتكبير له والتهليل والحمد والثناء ، وأما بالحال فما تدل عليه مصنوعاته وتشير إليه من نعوت جلاله وتقديسه . ويتضمن التنزيه تنزيه ذات الله وصفاته وأفعاله وعبادته عن كل مالا يليق به ، فذاته تُنَزَّهُ عن أن تكون جَوْهَرًا أو عَرَضاً أو أى شيء يدركه حِسٌّ أو يتصوره خيال أو يُفْضِى به تفكير . وصفاتُه تُنزَّه عن كل نقص وكل تشبيه بصفات الآدميين . وتُنَزَّه أفعاله عن أن يكون له فيها شريك ، وبالمثل عبادته . وهو تنزيه تتولد منه معرفته والإحساس بعظمته وقدرته المحيطة بكل ما فى الوجود ، كما تتولد منه التوبة والرغبة فى الطاعة والرهبةَ من المعصية .

و (اسْمَ) فى الآية قيل صلة زائدة قُصِد بها تعظيم المسمى ، وقيل ليست صلةً بل مقصودة ، أى تنزَّه اسم الله الجليل، وذكر الطبرى عن بعض المفسرين أن المعنى نَزِّه اسم ربِّك عن أن تسمِّى به أحدًا سواه . وقد يكون فى ذلك بُعْد . والأولى أن يكون الاسم هو المسمى أى اسمه المعبود بالحق الدال على جلال ذاته وكمال صفاته وأفعاله . وَذَكَرَ الله فى سورة الحشر بالآية السالفة وفى سور مختلفة أن له (الْأَسْمَاء الحُسْنَى) وجاء فى الحديث أنها تسعة وتسعون اسماً . وهى نوعان : نوع مختص به لا يسمَّى به غيره مثل الله والأحد والصمد والرحمن ، ونوع مشترك بينه وبين الخلق مثل العزيز والرحيم والكريم . وأسماؤه عند الجمهور توقيفية لا يصح إطلاقُ اسم عليه إلا إذا كان واردًا فى القرآن أو فى الحديث الصحيح ، فمثلا من أسمائه عالم ، ولا يصح أن يضيف إليه شخص اسم عارف مع إفادته معنى العلم . وذهب قوم إلى أن كل اسم يدل على معنى يليق بجلال الله يجوز تسميته به وإن لم

يرد فى القرآن والحديث لقوله جَلَّ شأنه فى سورة الأعراف : (وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) فكل اسم دلَّ على نعوت كماله وجلاله يمكن أن يسمَّى به . والأولى أن نقف فى أسمائه عندما ذكره منها القرآن والحديث إجلالا لذاته . وقيل إن الاسم المشار إليه فى الآية هو اسم الله الأعظم ، واختلفوا فى تعيينه ، قيل هو الله ، وقيل ذو الجلال والإكرام إشارة إلى آية سورة الرحمن : (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ والْإِكْرَامِ) ، وقد قلنا هناك إن المراد بالاسم فى الآية الرحمن المبتدأ به السورة . وقيل بل الاسم الأعظم الصمد ، وقيل : يا حىّ يا قيوّم ، وقيل : يا قدُّوس ، إلى غير ذلك من أقوال لعل أولاها أنه الله جَلَّ ثناؤه . وذكرُ الربِّ فى الآية إشارة إلى أنه يتعهد الخلق برعايته وأنه يُسْبغ عليهم من آلائه ونعمه ما ينبغى أن يتلقوْه بالعرفان والشُّكران والإكثار من تسبيحه وتنزيهه ، إذ كلمة الرب تفيد باشتقاقها معنى التربية والتقويم والتسديد ، إنه الحنَّان المنَّان الذى يَحِنُّ على عباده ويغدق مِنَنه عليهم . و (الأعلى) من العلو ، وهو ليس علو جهة ولا مكان ، تعالى الله عن أن يحيط به مكان أو تحيط به جهة ، إنما هو علو ألوهية واستحقاق لنعوت الجلال وصفات الكمال . وفى الحديث أنه يُسْتَحبُّ للقارئ إذا بدأ قراءة هذه السورة وتلفَّظ بآيتها التى نحن بصددها قال تَوًّا : « سُبْحَانَ رَبِّىَ الْأَعْلَى » . وفى الحديث أيضاً أنه لما نزلت الآية الكريمة : (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) قال عليه السلام : اجعلوها فى ركوعكم ، فلما نزلت : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قال : اجعلوها « فى سجودكم » . ولعل من العجب أن نجد بعض المفسرين يَقُصُّ أنه كان لله مَلَكٌ يقال له حِزْقيائيل هو أول من قال : سبحان ربى الأعلى ، وذلك

أنه كان له ثمانية عشر ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ، فخطر له خاطر أن يُبْصر العَرْش جميعه ، فزاده الله أجنحة مثلها ، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام ، ثم أوحى الله إليه : أنْ طِرْ ، فطار مقدار عشرين ألف سنة ، فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش . ثم ضاعف الله له فى الأجنحة والقوة وأمره أن يطير ، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى ، فلم يصل أيضاً ، فأوحى الله إليه : لو طِرْتَ إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ ساق عرشى ، فقال حزقيائيل : سبحان ربِّى الأعلى وخَرَّ ساجدًا . وزَيْفُ القصة وأنها من سيول الإسرائيليات التى دخلت على التفسير واضح . ومرَّ بنا فى سورة التكوير أن العَرْش فى القرآن رمزٌ إلى قدرة الله وكمال سلطانه على الكون .

(ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى) :

معنى خَلقَ الشىء أبدعه من أصْل أو من مادة كخَلْق الله للإنسان أو من غير مادة أو أصل كخلق الله السموات والأرض خلقاً على غير مثال . وهذا الخلق الثانى مقصور على الله جَلَّ شأنه ، ولذلك قال فى سورة النَّحْل : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) أى هل من يبدع المصنوعات الكونية كمن لا يستطيع أن يُبْدع منها شيئاً . ويدخل فى خلق الله للأشياء تقديره لها وفق حكمته وعلى مقتضى مشيئته ، وكأن الخلق يشمل شيئين : الإيجاد والتقدير السابق له ، فالخالق جَلَّ ثناؤه يرسم للشىء صورة ويوجده على أساسها ، أو قل هذه هى سُنَّتُنَا نحن ، ومن الممكن أن يخلق الله الأشياء دفعة دون أن يسبقها بصورة لها أو ما يشبه الصورة . ويقول فى الآية : (خَلَقَ

فَسَوّى) أى جعل صورة المخلوق سويّة معدّة للمنافع المقصودة منها ، فالإنسان مثلا يسوّيه بأن يجعل جسمه وأعضاءه فى الصورة المعروفة ، وكل عضو فيه ينهض بوظيفته ، فاليد تنهض بالبطش والرِّجل بالمشى واللسان بالتكلم والبصر بالنظر والأذن بالسمع . ومن التسوية أيضاً أن يكون كل شىء فى الكون وحدة فى نظام مطرد ، على نحو ما نرى من نظام الأفلاك والكواكب أو نظام دورات الفصول . وفى سورة الانفطار : (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) وكأنه يتمّ هنا تصويره لتسوية الإنسان فقد سَوَّاه وهو فى بطن أمه حين خَلقه وكوَّنه بشرًا سَوِيًّا بأعضائه المعروفة . وهى تسوية تضمنت اعتدال كل عضو وكل جانب فيه بحيث لا يوجد أى تفاوت بين عضو وعضو كأن تكون إحدى الرجلين أقصر من الأخرى ، وبالمثل باطنه فلا تفاوت مثلا فى الأوردة والشرايين التى تكونت يميناً أو يسارًا ، بل كل شىء وُضع بميزان دقيق من موازين العدالة السماوية لا فى خلق الإنسان وحده بل إن ذلك يَسرِى فى خلق الكون جميعه ، فلا اضطراب ولا اختلاط ولا تشويش، بل دائماً نظام متدخّل فى كل شىء بحيث لا نحسّ أى نشاز ، إنما نحس التلاؤم والتناسب والاتساق كما قال جَلّ شأنه فى سورة المُلك : (مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) فكل شىء مستو مستقيم . وليس ذلك فحسب كما تشير آيتا سورة الانفطار المذكورتان آنفاً بل كل شىء سُوِّى كما سُوِّى الإنسان فى صورة بديعة متناسبة فى الخلق والتكوين . وإذن فالتسوية تشمل تعديل المخلوق وتصويره بحيث تتم له كيفيته وتتم له صفاته وخواصه وصورته المتميزة التى يختص بها والتى تميزه من غيره فى النوع وفى الجنس ، ويتصل بذلك فى

الإنسان ما يبثه الله فى هيئته الباطنة من الروح والبصيرة والعقل والفؤاد بجانب ما خصّه به فى هيئته التى ندركها بالبصر . فكل ذلك يندرج فى التسوية كما يندرج فيها مواقع المخلوق مع غيره من الأشياء بحيث يتم للعالم نظامه فى صورة محكمة ، لا خلل فيها ولا عِوَج ولا فساد ولا اضطراب ، مما يدل أقوى الدلالة على كمال القدرة الإلهية وما يداخلها من العلم الدقيق بكل شئون الكون وحاجاته التى تحفظ عليه نظامه وتصون له بقاءه .

(وَالَّذِى قَدَّر فَهَدَى) :

معنى (قَدَّر) إما أعطى الشىء قَدْرَه أى جعله على قَدْرٍ مخصوص كما فى آية سورة الطّلاق : (قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىءٍ قَدْرًا) ، وإما أعطى الشىء القدرة ، ومنه آية سورة المائدة : (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وآية سورة الأنعام : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ) ، وإما أعطى الشىء أحواله حالا بعد حال كما فى آية سورة يس : (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِل) ينزلها منزلا بعد منزل . والمعنى الأول يدخل فى معنيى الخلق والتسوية . ويمكن أن يصدق المعنى الثانى على مدلول (قَدَّر) فى الآية ، أى أن الله بعد أن يوجد الإنسان مثلا ويسوّيه ويخرجه إلى الوجود يعطيه القدرة على البقاء إلى أجل معلوم ، وكذلك الشأن فى عناصر الكون المختلفة . وبالمثل يمكن أن نوجّه (قَدَّر) على المعنى الثالث ، فالله قدّر لكل كائن وكل شىء أحواله طوال بقائه ووجوده . ثم تكون بعد ذلك الهداية ، فكل شىء يُهْدَى إلى ما فيه بقاؤه وإلى ما فيه فائدة له ولغيره . وبذلك يتكامل صنع الكون ، فأولا الخلق والإيجاد ، وثانياً التسوية والكيفية المعدَّلَة المسدَّدة ، وثالثاً القدرة على البقاء والتطور فيه من حال إلى

حال ، ورابعاً الهداية بتناول الشيء لما فيه بقاؤه ونفعه لنفسه أو لغيره ، إما طبعاً وتسخيراً ، وإما قصداً واختياراً . ويتضح الطبع والتسخير فى ظواهر الطبيعة وفيما لفت إليه القرآن مراراً وتكراراً من تدبير الله نظام الكون وتسخيره الكواكب وإرساله الأمطار وإحيائه الأرض الموات . وقد عرضنا فى سورة « الرحمن » لبعض ما أودع فى الكون من قوانين تحفظ عليه بقاءه ، كقانون خَلْقه كل شيء من زوجين وقانون العدالة فى الخلق وأن يكون لكل شيء قوامه ونظامه بتقدير دقيق ، والله يضيف هنا قانوناً آخر هو هدايته كل شيء لما فيه بقاؤه ونفعه العائد عليه وعلى غيره من المخلوقات إما تسخيراً وإما اختياراً . ونقف عند الإنسان فقد أعطاه عقله وميوله ونوازعه وغرائزه ليكوّن حياته وحضارته ومدنيته . وكأنما أعطاه كل الأسلحة ليكون له وجوده الكامل وليفيد نفسه ويفيد غيره بما أحرز من وسائل العيش والحياة وما أحرز من العلوم والفنون وما دفع إليه من تطور مادى ورقى حضارى ، مع تمكينه من تسخير الطبيعة واستغلالها ، ومع تهيئة كل الأسباب له ليبلغ ما بلغ من المدنية . والحيوانات لم يعطها العقل لتهتدى به ، ولكنه أعطاها الإلهام ، لتعرف هبوب العاصفة قبل حدوثها ، ولتجد لنفسها مأواها والمكان الذى تلد فيه . وبالمثل أعطى الطير والأسماك من الإلهام أو قُل من الغرائز ما يهديها إلى مالا يُحدّ من المصالح وما لا يُحْصَرُ من الحوائج . وبالمثل هوام الأرض وزواحفها وحشراتها ، وكلنا نعرف كيف تبنى العنكبوت بيتها على وجه عجيب ، ونحن لا نستطيع أن نبنى البيت إلا بمهندس ورسم تخطيطى وبَنَّاء ومواد بِناء كثيرة فى حين تبنى النحل بيوتها من غير آلة ، والنمل تسعى فى جماعات لإعداد المئونة لنفسها ، ويقال إنها إذا أحست برطوبة المكان

الذى جمعت فيه مئونتها وكانت قد وضعت فيه بعض حبات تشق الحبة نصفين لئلا تنبت ، حتى إذا وصلت إليها الرطوبة أخرجتها إلى الشمس لتجفّ . وقصة الحمام الزاجل معروفة إذ يوخذ إلى مكان بعيد قد يبعد عن موطنه مسيرة عشرة أيام أو أكثر ، ثم يُطْلَقُ ومعه رسالة يحملها ، فيعود إلى داره بغريزته ، لا يخطئها ، مهما بعدت المسافة ، ولعل من أكبر العظات والهدايات أن الله قدر مدّة الجنين فى بطن أمه تسعة أشهر أو نحوها ، ثم هداه للخروج إلى الدنيا الفسيحة . وإن باب الهداية فى دنيا الإنسان والحيوان والكائنات لأوسع من أن يحيط به وصف .

(وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) :

المَرْعَى الكَلأُ الأخضر وهو ما ترعاه الدوَابُّ والأنعام غَضًّا طَرِيًّا من النباتات والحشائش . والغُثاء هو الهشيم من النباتات والبقول والأشجار ، مما تحمله الرياح أو تحمله السيول ، حُطاماً وفُتاتاً يَبِيساً . والأَحْوَى المائل إلى السواد كناية عن جفافه بتأثير حرارة الشمس . والآيتان تصويرٌ لقدرة الله وأن المخلوقات جميعاً من صنعه ولا يقدر أحد على صنعها سواه ، وليس ذلك فحسب ، فإن كل شىء فى الدنيا له مدة وجود وبقاء ، ثم يصبح كالنبات حين يذوى وتفارقه النضرة والحياة ويصبح حطاماً تدفعه الرياح ذات اليمين وذات الشمال . وقد بسط الله هذه الصورة أو هذا المثل فى القرآن مرارًا وتكرارًا ، فالأرض يرسل عليها المطر ويشق أديمها لتخرج منه النباتات مراعى لأنعام الناس ودوابّها ، وينشر فى تلك المراعى البهجة ، ثم لا يلبث أن يُذْهب عنها النضرة ، فإذا هى متهشمة متحطمة تحملها الرياح وتنسفها

نسفاً كما قال جل شأنه فى سورة الكهف : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) . فليس فى الأرض شىء يمتنع على قدرة الله وإرادته ، وإن كل ما عليها يعطيه الحياة ثم يُسْقط عليه الموت والفناء . وهو مثل ينطبق أشد انطباق على الدنيا ، فإنها بعد كل ما يتاح لها من الوجود وأطواره تتعرض لكارثة الفناء ويأتى عليها كأن لم تكن شيئاً مذكورًا . ويُكْثر الله من رسم هذه الصورة فى مثل آية سورة يونُس : (إنمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِما يَأْكُلُ النّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أتاهَا أَمْرُنا ليْلا أَوْ نهارا فجعَلْناها حَصِيدا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالامْسِ) ، فالحياة بعد كل ما يتاح لها من زينة والدنيا بعد كل ما تغرق فيه من زخرف سيصيبهما ما يصيب النباتات من يبس وذبول ، سَيَنْحَسِرَانِ عن الأرض وتنحسر معهما ظلالهما وما أظلتاه من متاع ، بل إن ذلك سيُسْتَؤصل استئصالا كما يستأصل النبات والزرع بالآلات ، فإذا كل ما عليها فانٍ . تفنى زينتها وتفنى منافعها وتفنى مآكلها ومشاربها وتفنى مراعى أنعامها ومراتع ناسها ، بل تفنى الأنعام ويفنى الناس . ولا يستطيلنَّ أحد مدة وجوده ، فالكل إلى فناء ، وهو فناء سرعان ما ينزل ، ويجسِّم الله سرعة نزوله بالمراعى ، فهى سرعان ما تنشأ فى بعض الفصول كفصل الشتاء والربيع وسرعان ما تفارقها نضرتها وبهجتها وتذبل وتجفّ وتغادر الحياة حطاماً تُبَعْثِره الرياح . وهو مثل يرمز فى وضوح إلى قصر مدة العمر وسرعة زوال الدنيا ومتاعها على نحو ما تجفّ المراعى وتصبح غثاءً

وهشيماً بعد فترة قصيرة من العام لا تكاد تتجاوز أشهرًا معدودة . والله لا يرمز إلى ذلك فحسب ، بل يرمز أيضاً إلى قانون ضخم من قوانين الخلق الإلهى لمصنوعاته الكونية ، فكلها أوجدها وأحسن تسويتها وتقويمها وقدّر لها كيف تمضى فى وجودها وعلى أى سنن تسير ، وهداها الطريق للمحافظة على بقائها ، وكتب لها بعد ذلك أن تدخل فى ظلال الفناء والموت . قانون من قوانين الدنيا ، فكل ما فيها إلى زوال وفناء . وأيضاً المثل لا يرمز إلى هذا الرمز وسابقه وحدهما بل يرمز أيضاً إلى قدرة الله التى لا تماثلها قدرة ، فهو وحده القادر على الخلق والتقويم والسداد وهو وحده القادر على بثّ الحياة فى الكائنات ونَزْعها أو فقدانها . وما حياة الإنسان جميعها أمام الله إلا عجز وقصور فحرىٌّ به أن يسلم له الأمر كله وأن يذعن له فى صدق وإخلاص .

(سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى • إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) :

تلطفٌ من الله جَلَّ شأنه لرسوله ، فبعد أن ذكر له أنه يهدى كل ما فى الكون لما فيه حفظه وبقاؤه تحدَّث عن هدايته الكبرى له إذ اختصه برسالته إلى البشر أجمعين وقال إنه سيتم هدايته ونعمته عليه بتلقين جبريل له وحيه وقرآنه ، ليهدى به الناس جميعاً . وقال إن الرسول لن ينسى منه شيئاً ، وأكّد ذلك بقوله : (إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ) وهو لن يشاء نسيانه له . والاستثناء بذلك يفيد التأبيد وأنه لن ينسى منه شيئاً أبدًا ، كما قال تعالى فى سورة هود فى خلود أهل الجنة بها : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ) . وقال المفسرون كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين ينزل عليه جبريل بالوحى ويأخذ يتلو بعض آيات الذكر الحكيم يردّد الرسول عليه السلام بعض ما يقول قبل أن يتم الآية أو الايات خشية نسيانه ومسارعةً إلى حفظ ما يسمع ، فأمره الله بأن يُنْصِتَ إليه ويُرْهِف سمعه وقلبه حتى يفرغ جبريل مما جاءه به من وحْى كما قال جلَّ ثناؤه فى سورة طه : (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) وكأنه يقول له : تأَنَّ حتى تسمع الوحى كاملا وتفهمه ، ثم أَقْبِلْ عليه بعد ذلك بالقراءة ، ولا تكن قراءتك مقترنة بقراءة جبريل . وذكر الله لرسوله هذا الأمر فى سورة القيامة بقوله : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) فهو يطلب إليه ألاَّ يحرِّك بالقرآن لسانه طوال إلقاء جبريل الوحى عليه وقراءته له ، متعجلا حفظه خشية أن يفلت منه شيء ، ويقول له متلطفا : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ) فى صدرك أو فى فؤادك (وَقُرْآنَه) أى قراءته وتلاوته فى لسانك (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) بلسان جبريل عليك (فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) واقْرَأْه كما قرأه عليك ، فإنك ستجده سهلا يسيرًا ولن تنساه أبدًا . ويتضمن هذا الوعد الكريم وعدًا آخر لرسوله بأن الوحى سوف يستمر نزوله عليه حتى يبلِّغ رسالة ربه كاملة ، رسالةً لن يضلَّ منه من جميع وَحْيها وقرآنها كلمة ، بل لن يضلّ منه حرف . وكان لا يكتب ، وتلك معجزة له ، فإنه كان أُمِّيًّا لا يقرأ ، وحَفِظه مرتَّباً فى صدره بصورته التى نقرؤها اليوم ، وقرأها المسلمون منذ وجوده بين ظهرانيهم ، فقد دأب صحابته على حفظه وتكرار تلاوته. وحَثَّهم القرآن على ذلك بمثل قوله فى سورة القمر : (ولقدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ) ، وكأنه يقول لهم إننا سَهَّلناه ويسرناه للحفظ ، وأمددنا من يريد حفظه بعونٍ من عندنا ، فهل من طالب لحفظه

فيُعَان عليه ؟ أو قل كأنه أودع فى الألسنة والقلوب طاقة تيسِّر حفظه وتمكن المسلمين من تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، بل لقد جعل قراءة المسلم له وتلاوته جُزْءًا لا يتجزَّأ من إسلامه ، بحيث إذا أهمل قراءته استحق الشقاء وكُتب عليه الهلاك فى الدارين ، كما قال فى سورة طه : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ ربٌ لِمَ حَشرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرا قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) ، وبذلك نفهم نشر القرآن للعربية فى كل بلد دخلها حتى أصبحت الضاد يوماً لغة الناس من أواسط آسيا إلى جبال البرانس · وكما نشرها حفظها إلى اليوم من التبلبل والضياع فى غمار اللهجات العامية .

ومعروف أنه ليس من كتب الله السماوية كتابٌ يُقْرَأ ويُحْفَظ سوى القرآن ، نعمة من نعم الله على رسوله أولا ثم على أتباعه ولغة الضاد ثانياً · وقد بدأ بتيسيره على رسوله وتمكينه من كل كلمة فيه بحيث استوعب كل حرف من حروفه ، وبحيث أدَّاه لصحابته أداء تامًّا دقيقاً دون أن يعتريه أى سهو أو أى نسيان . ويقول الله لرسوله : (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْر وما يخفَى) فالسر والجهر عنده سِيَّان ، وما فى قلبك من القرآن بالقياس إلينا كما يجرى منه تلاوة وجهرًا على لسانك ، ولن يضيع منك شىء مما وعيته فى فؤادك ، فالله من ورائك حفيظ. لكل ما تلاه عليك جبريل . ويكّرر الله فى القرآن أنه يعلم خفيات الصدور وما استكنَّ فيها من النيات ، لا قصدًا للتلطف كما تلطف لحبيبه فى هذه الآية وإنما قصدًا إلى التخويف من عقابه كما جاء فى آية سورة غافر : (يعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وما تُخفِى الصُّدُورُ) ، فهو يعلم ما فى الصدور من النِّيات ويعلم ما بَطَنَ فى الضمائر ، وبمثل هذه الآية وآية السورة نَشر

القرآن فى قلوب المسلمين خَشْيَةَ عظيمة من الله ، وجعل المسلم يعيش مخلصاً نيته لربه متورعاً عن الآثام والموبقات ظاهرًا وباطناً . والله هنا إنما يريد أن يقول لرسوله إننى لن أتخلّى عنك ، فستسمع القرآن من جبريل وسيرتسم فى قلبك بكل كلماته وحروفها وحركاتها ، وستتلوه كما سمعته بصور ألفاظه ، فلا تخف ولا تحركْ به شفتيك ولسانك مبادرًا إلى النطق به ، فإننا سنتكفّل بحفظك إياه وتلاوته وقراءته كما أنزلناه على قلبك بنطقه وأدائه .

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) :

معنى (نُيَسِّرك) نُهَيِّئك ونوفقك توفيقاً مستمرًا ، واليُسْرى قيل هى الوَحْى ، أى يهوّنه الله على رسوله بالحفظ ، وقيل اليُسْرَى عمل الخير . والرأى الصحيح ما حكاه القُرْطبى عن الضحاك أحد تلامذة ابن عباس من أن اليسرى فى الآية يُرَادُ بها الشريعة وهى الحنيفية السَّمْحة ، وهى سماحة تحيط بجميع جوانب الإسلام ، فهو دين خير ورحمة وبر بالإنسان وجماعته . وقد صوّرنا فى غير موضع رعايته لذوى الحاجة من الفقراء والمساكين والأيتام ، بل إن ذلك ليتعادل مع أصول العقيدة ومع الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، حتى لَيُرْوَى أن الرسول عليه السلام وضع المرأة المطعمة للمساكين التى تخلط بذلك عملا سيئا فوق المرأة المصلية الشحيحة . وفَرَضَ الإسلامُ الزكاة لمصلحة المجتمع والدولة ، ووضع أساساً للجماعة والسلوك الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر وقَمْعَ الغرائز الأثِرة والدنيئة والتحلِّى بالشّيم الكريمة وفى مقدمتها العدالة والعفة والأمانة فى صِلات الناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض والصبر فى البأساءِ والضراء والوفاء بالعهد . ومن يسر هذه الشريعة وسماحتها معاملتها

لأهل الكتب السماوية واحترامها لمنشآتهم وما اتخذوه من دور العبادة وعدم التعرض لهم فى شعائرهم ومناسكهم ومساواتهم بالمسلمين فى المعاملات المدنية والاقتصادية ، واتخاذها القانون السمح العظيم الذى صوَّرته آية سورة البقرة : (لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) وبذلك ضمَّ الإسلام فى أوج سلطانه تحت جناحيه فى دولته الكبيرة من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى جميع الملل دون تعرض لأهلها أو إجحاف بحقوقهم الدينية وغير الدينية . ويؤكد الله مرارًا أنه بَنى هذه الشريعة أو هذا الدين الحنيف على السعة والسماحة واليسر ، كما قال فى آية سورة الحجِّ : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) فقد محا منه كل حرج وكل ما يسبِّب ضيقًا أو شِدَّة ، وفسّح فيه ـ كما قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية ـ الرُّخَص والدِّيات والكفَّارات والأُروش ، والرّخص جمع رُخْصَة وهى ترخيص الله للمسلم أن يتخفف فى بعض الأحوال مما أوجبه عليه أو فرضه كإجازته له أن يصلى الصلاة قصرًا فى السفر الطويل ، فيجمع مثلا بين العصر والظهر ويصلِّى كلا منهما ركعتين ، وفى الحديث : «الله يحبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ كما يحبُّ أن يؤخذ بعزائمه» . والدِّيات جمع دِية وهى ما يؤخذ من الشخص فديةً له من خطإٍ كبير مثل القتل خطأً . والكفارات جمع كفَّارة وهى ما يكفِّر به عن ذنب مثل كفَّارة الحِنْثِ فى اليمين بصوم ثلاثة أيام أو إطعام عشرة مساكين . والأُروش جمع أَرْش وهى الجزاءات المالية الصغيرة كثوب معيب باعه بائع دون ذكر عيبه . وفى سورة النساء : (يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) أى فى جميع أحكام الشرع وأوامره ونواهيه ، وفى سورة البقرة : (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) فالشريعة كلها بُنِيت على اليسر فى جميع شئونها ، وفى الحديث النبوىّ :

« دين الله يُسْرٌ » وفيه : « يَسِّروا ولا تَعَسَّروا » وفيه : « والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جُحْرٍ لطلبه اليسر حتى يدخل عليه » ؛ وفى صحيح البخارى : « أَحبُّ الدين إلى الله الحنيفيَّة السَّمْحَةُ » ، وفى سورة أَلَمْ نَشْرَح : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا) وكأَن الله يريد أن يقول إنه لا يوجد فى الدين الحنيف عسر إلا ويقترن به يسر ، وكأَن اليسر يذلِّل العسر فى الأَحكام دائماً ، وعن ابن عباس يقول الله تعالى : « خلقت عُسْرًا واحدًا وخلقت يُسْرَيْن ، ولن يَغْلب عُسْرٌ يُسْرَيْن » . ولما كتب أبو عُبَيْدة الجَرَّاح إلى عمر بن الخَطَّاب يذكر له جيوش الروم فى الشام وما يتخوَّف منهم كتب إليه : « أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمنٍ من منزلِ شِدَّةٍ يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عُسْرٌ يُسْرين » . ولو قلنا إن كل عسر فى الإسلام يقابله يسران لما بلغنا حقيقة ما بُنِىَ عليه من يُسْرٍ . وقد مضى فقهاء الإسلام يَصْدرون عن هذه الروح فى أحكامهم الفقهية ولهم فى التعبير عنها عبارات مأثورة مثل قول سُفْيان الثَّوْرِىّ فى القرن الثانى الهجرى : « إن العلم هو أن تحلِّل الأَمر أخذًا من الأُصول فإن التضييق سهل لكل أحد » ، فالعالم الحق أو الفقيه الحق فى رأيه هو الذى يحلِّل للناس وييسِّر عليهم لا الذى يحرِّم ويعسِّر أخذًا بمبادئ الدين الحنيف . وهى مبادئ أرساها القرآن كما أرساها الحديث بكل قوة ، من ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه من أن الرسول صلى الله عليه وسلم « صَنَع شيئاً ترخَّص (تجوَّز) فيه وتنزَّه (منع جوازه) عنه قوم ، فبلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله (أى خطب فيهم حامدًا ربَّه) ثم قال : ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشىء أَصنعه فوالله إنى أعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . وكان يتعمد كثيرًا مثل هذه

الرخصة حتى تستقر قاعدة اليسر فى الإسلام وتصبح قانوناً صارماً من قوانينه ، تدور عليه مصلحة الجماعة . ومن المبادئ المتصلة بهذا القانون أن الأصل دائماً فى الأشياء الإباحة ، والتحريم هو الذى يحتاج إلى نص صحيح ، فالشيء ما لم يرِدْ فيه آية قرآنية أو حديث قاطع موثوق بروايته فهو مباح ولا يصح أن يقال فيه حرام أو مكروه . ومن تلك المبادئ الدينية الميسّرة على المسلمين مبدأ « الضرورات تبيح المحظورات » التى نهى عنها الشارع ، وهو مبدأ رسمه القرآن فى وضوح إذ يقول تعالى شأنه فى سورة البقرة : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) فأكل الميتة حرام وكذلك الدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذُبِح للنار والأوثان من ذبائح المجوس والوثنيين ، كل ذلك حرام إلا أن يُضْطَرَّ مسلم إليه ، تضطره مَخْمَصَة أو جوع مهلك . ومثل ذلك يقال فى الخمر للعطش حين يُفْقد الماء ولا يوجد سواها . فالمحرّم يباح للضرورة تيسيرًا على نحو ما يباح الإفطار فى الصوم للمريض . وهو أصل من أصول الشريعة أن يُرْفَعَ عن المسلم كل ما فيه مشقة شديدة وإصْرٌ أو عَنَاءٌ ممضّ ، إنها بحق شريعة اليسر ، أو كما سماها الله (اليُسْرَى) فكل شيء فيها يقوم على اليسر وكل عسير ييسّر وكل ثقيل يخفّف وكل صعب يذلّل ، سماحة ليس لها مثيل ، ويسرٌ ليس له قرين .

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى) :

ذكّر من التذكير ، وهو العظة ، والمعنى عِظْ مَنْ حولك من الناس بما أوحينا إليك من القوارع والزواجر المؤثرة التى تأسر القلوب . وتوقّف بعض

المفسرين بإزاء قوله تعالى : (إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى) فقال كأن الله عزَّ ذكره قال : إن نفعت الذكرى أو لم تنفع ، كأن الذكر والوعظ واجب وإن لم يأت بنفع ، أو كأن الله لا يريد لرسوله أن يتعب فى أن يذكِّر من لا يزيده التذكير إلا عُتُوًّا كما قال تعالى : فى سورة قٓ : (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) والمعنى لستَ مسلَّطاً عليهم بحيث تستطيع أن تُجْبِرَ مَنْ يكذِّبونك . فعِظْ من يخافون وعيدى وعقابى ودَعْك من المعاندين وأعْرِضْ عنهم . وقيل إن تقييد الوعظ بإن الشرطية الغرض منه ذم الكفار باستبعاد أنهم يتعظون فقد طُبع الكفر على قلوبهم ولن يستمعوا لوعظك ولن يستجيبوا لك ولن ينتفعوا بما تذكِّرهم به . وأولى من القولين جميعاً قول بعض المفسرين : إنْ فى الآية ليست شرطية . إنما هى مصدرية بمعنى ما ، وكأن الله قال : فذكِّر ما نفعت الذكرى ، إذ الذِّكرى دائماً نافعة ، ويستجيب لها من يؤدِّيه النظر الحصيف إلى اتباع الحق ، وهو ما نَصَّ الله عليه فى الآية التالية إذ قال : (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى) والخشية خوف يشوبه تعظيم . وهى فوق الخوف والرجاء . أما الخوف فتوقع العقاب عند استشعار المكروه ، والرجاء تعلق بشىء يؤمل حصوله أو دوامه . أما الخشية فوجل وهيبة مقرونة بالتعظيم والإجلال ، ولذلك جعل الله الاتعاظ فى الآية إنما يبلغ تأثيره المبلغ القوىّ فيمن يستشعرون خشيته لا من يستشعرون الخوف منه والرجاء . وقد صوَّر الله فى آية سورة الزمر هؤلاء الذين يخشونه حين يستمعون إلى رسوله ، وهو يتلو عليهم كلام ربِّهم ، يقول : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ،

ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) وهو أحسن الحديث بما فيه من غذاء للقلوب والأرواح وبما يلذ الآذان من جَرْسه حين تستمع إليه وما يلذ الأفئدة من مواعظه حين تُصْغى إليه . ويصفه الله بأنه متشابه أى أن آياته يشبه بعضها بعضاً فى الوعظ وفى الحسن والأداء . وقال إنها مثان أى أنها تُثَنَّى فى التلاوة فلا يَمَلّ سامعها تكرارها وتردادها ، وقيل بل تُثَنَّى فيها المواعظ والقصص . والقول الأول أصح وأولى . واقشعرَّت جلودهم أصابتها قُشَعْرِيرة ، وأصل الاقشعرار تقبُّض الجلد تقبُّضاً شديدًا ، ومن أمثال العرب : اقشعرَّ جِلْد فلان من الخوفِ وقَفَّ (قام فزعاً) شَعْره كناية عن شدة خوفه . والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وما فيه من الوعيد أصابتهم خشية تقشعرُّ منها جلودهم ، حتى إذا سمعوا ما فيه من عفو وصفح وقبول للتوبة ورحمة واسعة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنهم ما نزل بهم من الوجل والرهبة والقشعريرة واطمأنوا إلى مغفرة الله وأنهم سينالون رضاه وثوابه ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين شرح الله صدورهم كى يستضيئوا بنور الإسلام . هدى من الله يوفِّق إليه من يستحقونه وينحِّى عنه الكفار والفجرة بخذلانهم لقسوة قلوبهم وإصرارهم على فجورهم ، ومن يخذله الله فلا هادى له . ويُرْوى عن السيدة أسماء بنت أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنهما أنها سُئلت عن الصحابة كيف كانوا يسمعون القرآن من الرسول عليه السلام ، فقالت : كانوا إذا قُرِئَ عليهم القرآن – كما نعتهم الله – تَدْمَعُ أعينهم وتقشعرُّ جلودهم ، والسيدة أسماء تشير بقولها كما نعتهم الله إلى آية الزمر السالفة ومثل آية سورة الإسراء : (وَيَخِرونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ويزِيدُهُمْ خُشُوعاً) ومعنى يَخِرُّون للأذقان يسقطون مسرعين ساجدين لله تعظيماً وخشية ،

وفى الحديث : «إذا اقشعرَّ جلد المؤمن من مخافة الله تحاتَّتْ عنه خطاياه كما يتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقها» .

(وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) :

يتجنَّبها يبتعد عن الذكرى والموعظة . ووُصِف هذا المتجنِّب لها بأنه (الأشقى) لإغراقه فى الكفر والشرك وعداوته للرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو أشقى من الكفار العاديين وأكثر منهم ازدياداً فى الشقاوة ، والمراد الشقاوة الأخروية . و (يَصْلَى النَّارَ) يذوق لظاها وعذابها ، كما قال تعالى فى سورة الليل : (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلاهَا إِلَّا الْأَشْقَى) ، وقيلت آراء مختلفة فى المراد بالنار الكبرى ، فقيل الكبرى بالقياس إلى دركات النار فى الآخرة وطبقاتها ، فهى الطبقة السفلى . وقيل الكبرى هى نار جهنم ، وهى تقابل نار الدنيا الصغرى لما رُوِى من أنها جزء من سبعين جُزْءًا من نار جهنم . وقيل النار الكبرى عذاب الآخرة الذى وصفه الله فى سورة الغاشية بأنه العذاب الأكبر إذ يقول : (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) ، ويقابله العذاب الأصغر ، وهو عذاب الدنيا وعذاب القبر وهما ما سماهما الله فى سورة السجدة بالعذاب الأدنى فى مقابل العذاب الأكبر ، إذ يقول : (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ) . وقالوا عذاب الدنيا الأمراض والكوارث ، وقيل بل الجوع والأسر والقتل على نحو ما قُتل رءوس الكفر القرشيون فى غزوة بدر ، وفى سورة الزُّمَر : (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الخِزْىَ فِى

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ، فعذاب الدنيا يدخل فيه الخزى والذل والهوان بالجوع وبالسيف . وقال بعض الصوفية : النار ناران : نار صغرى وهى الاشتغال بالشهوات واللذات فى الدنيا ، ونار كبرى وهى الخذلان والخسران والهجران فى الآخرة . ومن هنا قال بعض المتصوفة أيضاً هى نار الحجاب عن الربِّ ورؤيته فى الآخرة على نحو ما صوَّرت ذلك آيات سورة المطفِّفين : (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) والآيات تضيف حجاب الرؤية إلى عذاب النار ، وقد يكونان جميعاً ما رُمز إليهما باسم (النار الكبرى) و (العذاب الأكبر) . وقوله تعالى : (لَا يَمُوتُ فيها ولا يَحْيَا) أى لا يموت الأشقى فيستريح ولا يحيا حياة طيبة ، كما يقال لمن نزل به بلاء شديد لا هو حى ولا هو ميت كناية عما هو فيه من العذاب والبلاء . وقد يكون المعنى أنه من شدة العذاب يتمنى الموت ولا يموت كما قال تعالى فى سورة الزخرف : (وَنَادَوْا يَا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ) ، ومالك خازن النار ، ويصورهم الله يسألونه الموت ، ويجيبهم بأنهم خالدون فى العذاب وإن يموتوا أبدًا . وفى سورة فاطر : (والَّذِينَ كفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) قيل إنهم يحترقون فى النار ، وكلما احترقوا أُعيدوا إلى الحياة وعُذِّبوا ، فلا هم موتى دائماً ولا أحياء دائماً ، وهو توجيه بعيد لمدلول الآية . وقال بعض المتصوفة (لا يموت) لامتناع انعدام جسده (ولا يَحْيَا) فى الحقيقة لهلاكه الروحانى ، وهو أيضاً تأويل بعيد . ومثله قول بعضهم (لا يموت) فيستريح من غمّ الهجران الرَّبَّانِيِّ والقطيعة (ولا يحيا) فينعم بروح الوصال ، فهو دائماً يتعذب بعقوبات الحجاب .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) :

الفلاح الظفر وإدراك الأمنية والسعادة ، والمراد الفلاح فى الآخرة ، وقيل الفلاح الأخروى بأربعة أشياء : حياة بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذُلٍّ ، وعلم بلا جهلٍ ، ولذلك قيل لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة . و (تَزَكَّى) من الزكاة وهى النماء والبركة والطهر ، أى تطهَّر من الكفر والمعاصى بتحرِّى ما فيه رضا ربه وثوابه الأخروى . وقد نُسِب إلى الله جَلَّ شأنه فى القرآن بهذا المعنى كما فى آية سورة النساء : (بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ) ونُسِب أيضاً إلى الرسول عليه السلام كما فى آية سورة التوبة : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) . وقيل (تزَكَّى) فى الآية من الزكاة أى أخرج زكاة الأموال كلها وهى ما يخرجه من حقوق الله تعالى لذوى الحاجة . وقيل بل المراد زكاة الفطر خاصة لذكر الصلاة وكأن المراد صلاة العيد ، وهو تخصيص لا تدل عليه الآية ، وإن كان القرآن إذا ذكر الزكاة ذكر معها الصلاة تعظيماً لشأنها كأنها عبادة لا تقلُّ عن عبادة الله . والأولى أن تكون الزكاة فى الآية عامة بحيث تشمل زكاة الأموال وزكاة الأعمال وتطهير النفس من كل تقصير فى فروض الدين ومن كل نقص فى السلوك وفى العبادة والتقوى . (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) قيل ذكر معاده وموقفه بين يدى الله فعبده وصَلَّى له . وقيل : ذكر اسم ربه بالتكبير فى أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره ، وهو قول الشخص : الله أكبر . وبه احتجَّ الفقهاء على وجوب ذكر الله فى أول الصلاة . وقيل إن افتتاحها جائز بكل اسم من أسماء الله ، وذهب الجمهور إلى وجوب تكبيرة الافتتاح ، فالذكر فى

رأيهم تكبيرة الافتتاح . واحتجوا بعطف الصلاة على ذكر اسم الرب بأن التكبير ليس من الصلاة . وهى مسائل خلافية بين الفقهاء . وقيل الذكر فى الآية إنما يراد به تكبيرات الركعتين فى صلاة العيد ، وقيل بل المراد ذكر الله فى الطريق إلى الصلاة قبل التلبس بها . وقيل المراد بقوله : (وَذَكَرَ اسْمَ ربِّهِ) أن يذكره بقلبه عند صلاته فيخاف عقابه ويرجو ثوابه ، ليكون استيفاؤه للصلاة وخشوعه فيها تامًّا بحسب رجائه وخوفه من عذاب الله . وقيل مراتب المسلم ثلاث . أولاها إزالة الشرك والعقائد الفاسدة عن قلبه ، وهى المرادة بالتزكى . والمرتبة الثانية استحضار معرفة الله فى الصلاة بذاته وصفاته وأسمائه ، وهى المرادة بالذكر ، لأن الذكر بالقلب إنما هو المعرفة . والمرتبة الثالثة الاشتغال بالعبادة والطاعة . وهى الصلاة وما يكون بها من خشوع . لأن من استنار قلبه بمعرفة جلال الله لا بد أن يظهر الخشوع فى جوارحه وفيما يؤدى من صلاته وعبادته . ويُرْوَى عن الرسول عليه السلام أنه رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة . فقال : «لو خشع قلب هٰذا لخشعت جوارحه» . وواضح أن المراد بالصلاة فى الآية الصلاة المفروضة وهى الصلوات الخمس . وقيل . وهو قول ضعيف ، المراد الدعاء أى دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة .

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ¤ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) :

(بل) إضراب عن كلام مقدر . والخطاب إما للأشقياء من الكفار فالمراد بإيثار الحياة الدنيا الركون إليها والإقبال عليها والإعراض عن الحياة الآخرة ، كما جاء فى آيتى سورة يونس : (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

ورَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنيا وَاطْمأَنُّوا بِهَا والَّذِين هُمْ عنْ آيَاتِنا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مأْوَاهُمُ النارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) . وإما الخطاب للكفار الخاسرين والمؤمنين جميعاً ، وإذن يكون المراد بالإيثار ما لا يخلو عنه الناس مؤمنين وكافرين من إيثار الدنيا على الآخرة ، أما الكافر فيؤثرها إيثار كفر ، إذ لا يرى وراء الدار الأولى دارًا أخرى ، وأما المؤمن فيؤثرها إيثار معصية أو هوى نفس . وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية ؛ فقال : أتدرون لِمَ آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ ثم قال : لأن الدنيا عُجِّلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها ولذّاتها وبهجتها ، والآخرة غُيِّبَتْ عَنَّا فأخذنا العاجل وتركنا الآجل . ويُرْوَى عن أبي موسى الأشعرى أنه سأل : ما أبطأ بالناس عن الآخرة ؟ فقال له رفيقه . الدنيا والشيطان والشهوات ، قال : لا ولكن عُجِّلَتِ الدُّنْيَا وغُيِّبَتِ الآخرة ، أما والله لو عاينوا الآخرة ما ساوَوْا بها شيئاً ولا تردّدوا . ويقول الله إن الدار الآخرة خير أو أفضل وأبقى أو أدوم من الدنيا . وتتردد فى القرآن دعوة واسعة إلى رفض الدنيا ومتاعها والإقبال على الآخرة ونعيمها من مثل قوله جلَّ ثناؤه فى سورة القصص : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها ومَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) . وقد اندفع المسلمون وفى مقدمتهم قائدهم عليه السلام فى حياة ناسكة كلها زهد وسلوٌ عن الدنيا ورَفْضٌ لكل ما فيها من متاع . وفى الحديث أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يدلَّه على عمل إذا عمله أحبَّه الله وأحبَّه الناس ، فقال له : «ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبّك الناس» . ولا شك فى أن زاهد الأمة الأول الذى آثر ما عند الله بكل قوة على ما فى الدنيا من متاع فانٍ هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقد اقتدى به صحابته وفى مقدمتهم أبو بكر وعمر ، ويكفى أن نسوق بعض ما يُرْوَى عن زهد عمر وقد فتحت

جيوش المسلمين فى عهده إيران والشطر الأكبر من دولة بيزنطة لنرى إلى أى حدٍّ تمثَّل هو وأقرانه دعوة القرآن إلى إيثار الآخرة على الدنيا الزائلة . وكان إذا قرأ قوله تعالى فى سورة الأحقاف : (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) قال لأصحابه ومن معه : لو شئتُ كنت أطيبكم طعاماً وألينكم لِباساً ولكنى أستبقى طيِّباتى للآخرة . وهو درسٌ تلقنه عن الرسول عليه السلام ، ففى صحيح مسلم أنه قال : دخلتُ على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مَشْرَبته (غرفته) فالتفتُّ ، فلم أر شيئاً يردّ (يجذب) البصر إلا جلودًا معطونة ، قد سَطَع ريحها (غير الطيِّب) فقلت : يا رسول الله أنت رسولُ الله وخِيرَتُهُ . وهذا كِسْرَى وقَيْصَرُ فى الدِّيباج والحرير ؟ قال عمر : فاستوى الرسول جالساً ، وقال : أفى شَكٍّ أنتَ يا بْنَ الخَطَّاب ، أولئك قومٌ عُجِّلَت لهم طَيِّباتهم فى حياتهم الدنيا . قال عمر فقلت : اسْتَغْفِرْ لى ، فقال : اللهم اغْفِرْ له . ودار الزمن وأصبح عمر خليفة المسلمين وفُتحت ديار الشام ما عدا القدس فإن قساوستها أصروا على أن لا يسلِّموا مفاتيحها إلا إلى الخليفة نفسه ، فقدم عمر الشام وصُنع له طعامٌ لم يَرَ قط مثله ، فلما رآه قال لمن حوله : هذا لنا ؟ ! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير ، فقال خالد بن الوليد القائد المشهور : لهم الجنة ، فاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا عمر بالدُّموع ، وقال : لئن كان حَظُّنا من الدنيا هذا الحطام وذهبوا هم فى حظهم بالجنة فلقد باينونا بَوْناً بعيدًا ، وهو بُعْدٌ أخلاقى عظيم . وقال حَفْص بن أبى العاص : كنت أتغدَّى عند عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الْخُبْزَ والزَّيْت ، والخُبْزَ والخَلَّ ، والخُبْزَ واللَّبَن ، والخبز والقديد (قطع اللحم الجافة) وأقلّ ذلك

اللحم الغريض (الناعم) وكان يقول : لا تنخلوا الدَّقيق فإنه طعام كلّه ، فجيء له يوماً بخبز متشقق غليظ . فجعل يأكل ويقول لمن حضروه : كلوا ، فجعلنا لا نأكل . فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا . فقال : يا بن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أن لو أمرتُ بعَناقٍ (الأنثى من الماعز) سمينة فيُلْقَى عنها شعرها ثم تُشْوى ؟ ! أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع (نحو قدح) أو صاعين من زبيب فأجعله فى سِقاء (إناء الشراب) ثم أَشُنُّ (أصبُّ متفرِّقاً) عليه من الماء، فيصبح كأنه دم غزال ؟! فقلت : يا أمير المؤمنين أَجَلْ ما تَنْعَتُ العيش ، قال : أَجَلْ . والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركتكم فى العيش ، ولكنى سمعتُ الله تعالى يقول لأقوام ، وتلا آية الزُّمَر السالفة . وعمر رضى الله عنه مثل أعلى فى الزهد والتقشف . وينبغى أن نعرف أن تناول الطيِّب الحلال مأذون فيه ، إنما الممنوع تناول الحرام بغلبة الهوى والنفس الأمَّارة بالسوء ، كما ينبغى أن نعرف أن كل ما فى الدنيا زائل وأن نعيم الآخرة هو الباقى وعلينا أن نطلبه وأن نؤثره ، لأنه الباقى الخالد . وقال مالك بن دينار أحد زهاد القرن الثانى للهجرة : لو كانت الدنيا من ذهب يفْنَى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزفٌ يَبْقَى عَلَى ذهبٍ يَفْنَى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزفٍ يَفْنَى ؟ !

(إِنَّ هٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) :

اختلف المفسرون فيما يشير إليه اسم الإشارة (هذا) فقيل يشير إلى قوله

تعالى قبله : (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى). وقيل يشير إلى قوله تعالى فى السورة : (قَدْ أَفْلَحَ) وما وراء آيتها . وقيل يشير إلى السورة جميعها . وأولى من كل هذه الأقوال ما قيل من أنه يشير إلى القرآن جميعه . و (الصحف) جمع صحيفة ، وهى الكتاب ، وقيل الصحيفة أصلها للمبسوط من كل شىء كصحيفة الوجه والصحيفة التى يُكتب فيها ، والمصحف ما يجمع الصحف المكتوبة . وقد فَسَّرتِ الآيةُ التالية الصحف الأُولى بأنها صحف إبراهيم وموسى المنزلة عليهما . والمعنى أن ما نُزِّل عليك هو نفسه ما نزِّل على إبراهيم وموسى . ويشير القرآن مرارًا وتكرارًا إلى أن الشريعة الإلهية واحدة وأن ما أوحى إلى الرسول هو نفسه ما أوحى إلى غيره من الرسل ، فالشريعة واحدة والدين واحد ، يقول جَلَّ شأنه فى سورة الشورى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ). ومعروف أن أول رسولٍ أُرسل للناس نوح ، أما آدم فكان نبيًّا ولم يرسل بشريعة ، إنما أُلهم ضرورات المعاش والحياة والبقاء وعبادة الله . ثم كان نوح فأرسله الله إلى قومه بأول رسالة سماوية تضمنت العقيدة الإلٰهية وما يتصل بها من الأعمال والواجبات . ثم أخذت تتوالى الرسالات منذ إبراهيم ، وقد أشار الله فى سورة البقرة إلى أنه بعثه بشريعة أوضح له فيها الواجبات والتعاليم الدينية ، إذ يقول جَلَّ شأنه : (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّه بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) أى أنه نهض بهنَّ على خير وجه ، ولذلك قال الله له فى نفس الآية : (إِنِّى جَاعِلُكَ لِلناسِ إِمَاماً) أى قُدْوة يُقْتَدَى به فيما نزل عليه من شريعة . فهو إمام كل من يأتون بعده من الرسل ، ولذلك يتكرر فى القرآن أن الرسول يتابع ملَّته كما جاء فى آية سورة النحل : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً) بل إنه يتابع - كما جاء فى آية الشورى - كل الرسل فى شرائعهم . بل إنها شريعة واحدة ، ما زال الرسل يبلِّغونها واحدًا بعد واحد حتى خُتمت بمحمد صلى الله عليه وسلم . والله لا يريد بتلك الشريعة الواحدة أن كل ما جاء به رسول يطابق ما جاء به الآخر فى مصالح الناس ، فإن فى الشرائع جانباً يتبدل بتبدل الأعصار والجماعات ، ولذلك أصبحت هناك شرائع مختلفة على نحو ما هو معروف من الاختلافات بين الشريعتين المسيحية واليهودية ، إنما يريد جَلَّ شأنه أصول العقيدة التى لا تختلف باختلاف الأصقاع والأوضاع الاجتماعية والزمنية أما بعد ذلك فبين الشرائع خلاف فى الفروع وفى الأعمال طبقاً لمصالح الجماعات وتطورها على مر الزمن كما جاء فى سورة المائدة : (لِكُلٍّ جعلْنَا منْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً) والشِّرْعة الشريعة وأصلها الطريق إلى الماء ، وهو صنيع لمصلحة البشر ، إذ جعل كل شريعة تفى بحاجات قومها ومصالحهم حتى تستقيم شئونهم . وأدّى ذلك إلى أن تكون هناك شرائع سماوية متعددة ، غير أنها جميعاً تتفق فى الأصول ، وهى توحيد الله وعبادته والإيمان برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر ، وهو ما أشار إليه جَلَّ ثناؤه فى آية الشورى السالفة بقوله : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقوا فِيهِ) أى اجعلوه قائماً دائماً من غير خلاف فيه . واختلفت الشرائع بعد ذلك فى الفروع حسب مصالح الأمم وأحوالها وأوضاعها التى تنشأ ، ومن الطبيعى أن ينسخ حكم لاحق فى فرع حكماً سابقاً فى شريعة سالفة بحكم تجدد الأوضاع والأحوال فى الجماعة الجديدة ، ولعل هذا المعنى هو الذى لفت إليه القرآن فى آية سورة البقرة : (مَا نَنْسَخْ مِن آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) وقد يشهد لذلك أن الآيات قبلها موجهة إلى

أهل الكتب السماوية السابقة ، وكأن الله عزّ ذكره يقول لهم لا تجحدوا الدين الحنيف لما فيه من تبديل لبعض الأحكام والتعاليم فى شرائعكم ، فتلك سُنَّتنا نمحو ونثبت فى بعض الأحكام والتعاليم . ويبعد أن يوجَّه النسيان بأنه كان لبعض الآيات القرآنية ، فإن شيئاً منها لم يسقط من ذاكرة الرسول كما قالت آية هذه السورة : (سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى) . وإذن فالشرائع السماوية تتفق فى الأصول وتختلف أو تتفاوت فى الفروع ، وهو ما أراده الله بأن ما فى القرآن ثابت مستمر ومستقر فى الصُّحُفِ الأُولى صحف إبراهيم وموسى . ونفس ما سبق الآيتين فى السورة مما يدخل فى تلك الأصول ، إذ كانت تتحدث عن الكفر والإيمان والمعاد والثواب والعقاب . وبالمثل آيات سورة النجم التى ذكرتْ تلك الصحفَ، وما تلاها من حديث ، إذ يقول تبارك وتعالى عن بعض الكفار : (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) إلى قوله تعالى : (فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى) . والآيات تتناول جزاء الأعمال فى القيامة والأدلة على وجود الله المحيي المميت مقسِّم الأرزاق مع الإشارة إلى من هلكوا من الأمم الخالية . وصحف موسى هى التوراة ، وصحف إبراهيم قد تكون سقطت من يد الزمن أو لعلها سُجِّلت خلال بعض ما للرسل من كتب . وقد اقتضت حكمة الله أن تُخْتَمَ الشرائع السماوية بشريعة عامة تكفل للبشر مصالحهم على اختلاف الأقطار وتفاوت الأزمان ، وهى الشريعة المحمدية السمحة ، شريعة تصوِّر المثل الأعلى الذى كانت تطمح إليه الحياة الإنسانية منذ شاءت العناية الإلهية أن تُرْسل الرسل إلى الناس ، تصوره من حيث ما تحمله من أصول العقيدة التى لم يدخلها من لدن الله أى تبديل أو تعديل ، ومن حيث ما تحمله

من الفروع فى الأحكام التى تلائم البشر على اختلاف أجناسهم وعصورهم . ولعلنا بذلك نفهم لماذا قال نوح فى سورة يونس : (وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) ، ونُعِتَ إبراهيم فى سورة آل عمران بقول الله تعالى : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً) ، وجاء فى سورة يونس : (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) ، وقال الحواريون لعيسى فى سورة آل عمران : (آمَنَّا بِاللهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) . وكأن الإسلام دين جميع الرسل ودين أممهم ، وهو دينهم جميعاً فعلا بما يحمل من أصول الشريعة السماوية فى صورة ربانية صافية لم تدخلها أى شائبة من تحريف أو تبديل ، وهى الصورة التى ارتضاها الله بكل ما اتصل بها من أحكام فى الفروع لتكون ناسخة للأديان السابقة ، ولتكون لها الهيمنة عليها كما قال جَلَّ شأنه فى سورة المائدة : (وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) ، فالقرآن يهيمن على الكتب السماوية السابقة ، وبعبارة أخرى يهيمن الإسلام على ما قبله من الديانات ، إذ هو الصورة الصحيحة لأصول الشريعة الإلٰهية ، وهو الصورة النهائية للأحكام المتصلة بفروعها وما شرعه الله للناس فيها وما نسخه وما أبقاه ، الصورة التى ترسم للإنسان الحياة الكريمة : الحياة الروحية بكل ما يتصل بها من شئون العقيدة والعبادة ، والحياة الدنيوية بكل ما يتصل بها من السلوك الفاضل ومن تنظيم العلاقات فى الأسرة والمجتمع بحيث يتم للناس تكافل إنسانى قويم وتكافل اجتماعى واقتصادى رشيد ، مع الدعوة الواسعة لاستخدام العقل فى كل ما يعود على النوع البشرى بالنفع . وبذلك كله كان الإسلام نعمة كبرى على الإنسانية : لما يكفل للبشر من السعادة فى الدارين الأولى والآخرة .